مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (3)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (3) 2019

تَيْمةُ الموت في ديوان "قفزة في الهواء" لممدوح عدوان

د. طلال محمد حسن*

(تاريخ الإيداع 19 / 3 / 2019. قبل للنشر في 8 / 5 / 2019)

□ ملخّص □

يدرسُ البحثُ موضوعة الموت في آخر مجموعة شعريّة للشّاعر ممدوح عدوان، وهي "قفزة في الهواء"، ويبيّن أنّ ظهور هذه التّيْمة لافتٌ نظراً لحضورها في عدد كبير من القصائد يفوق نسبة حضورها في أعماله الأولى. ويخلص البحثُ إلى أنّ معاناة الشّاعر الطّويلة مع المرض، وإحساسه بالعجز والضّعف واقتراب الموت هو العامل المؤسّس لهذه الظّاهرة.

ويمكن أن نلحظ شكلين لصورة الموت: أولهما أنّ الموت نهاية حتميّة لا مفرّ منها، ولذلك يسلم له الشّاعر من دون اعتراض، وثانيهما أنّ الموت تحوّلٌ، وهي رؤية تصوّر وعي من يؤمن بانتقال الرّوح من كائن إلى آخر حتى تتطهّر، وتعود إلى المصدر الذي هبطت منه.

يؤيّد الباحث ما يذهب إليه بشّواهد شّعرية مناسبة وبآراء بعض الفلاسفة، ويحاول تحليلها ودراستها بدقّة.

الكلمات المفتاحية: الموت؛ ممدوح عدوان؛ التّحوّل؛ قفزة؛ رثاء

* مدرس متفرغ ، قسم اللغة العربية وآدابها ، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (3)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (3) 2019

The Concept of Death in Mamdouh Udwan's Anthology"A Jump in the Air"

Dr. Talal Muhammad Hasan *

(Received 19 / 3 / 2019. Accepted 8 / 5 / 2019)

□ ABSTRACT □

This piece of research examines the concept of death in MamdouhUdwan's final poetical anthology "A Jump in the Air", and manifests that this concept is attractive since it appears in a large number of poems that exceeds its appearance in his early works. It concludes with the poet's chronic suffering from disease, and his parallesitic feeling of helplessness, faint, and the ominous death that altogether underlies such a phenomenon.

It is feasible to observe two forms of the death image: first, that death is a mere inevitable end that is unescapable—thus the poet relinquishes with no objection, second, that death is a mere transformation—and this is an insight that visualizes the understanding of those who believe in the transference of the soul from one human being into another up until it purges and ascends to where is initially descended form.

Vying for crystallization, this paper presents supportive appropriate poetical proofs in addition to a few philosophers' viewpoints as well as it endeavours to analyze and scrutinize them quite precisely

Keywords: Death; MumdouhUdwan; Transformation; Jump; Elegy

* **Assistant Professor, Arabic Secion , Faculty of Art, Tishreen , University , Lattakia,Syria**

مقدمة:

" لنْ تخذَلني الكلمات
لنْ تعجزَ عنْ نضحِ الهمّ ،
أنا ربيبتُ الكلماتِ لهذا اليوم .
وستلبيني .
حتى لو مُزجتْ بالدم ."[1]

يكاد هذا التقديم "كما سميّ " يشي بكلّ ما أراد ممدوح عدوان قوله، إنّه في لحظة مواجهة الموت لم يجد من يلوذ به سوى الكلمات ، وسوى الشعر وهو على ثقة مطلقة بأنّ هذا الشعر لا يمكن أن يخذله ، وتأتي " لن " لتحمل دلالة قطعية على تلك الثقة ،فالكلمات هي الطفل المدلّل ،رباه وقدّم له كل شيء : الوقت ، الرعاية ، العاطفة والحياة ، لقد عايشها حروفاً جدل منها كلماتٍ نفخ فيها من روحه وقلبه . لذلك الأوْلى بها أن تكون وفيّة له وقت يحتاجها . فهل كانت الحروف وفية ؟ هل كانت كما اشتهاها ؟

هل كان الشعر صوته عندما بدأت تتقطع حبال الصوت بفعل المرض ؟ وهل بقيت الحروف بَوحَهُ الخالد وقد غادرنا جسده ؟

يحاول البحث الوقوف على هاجس الموت في النصوص الشعرية الأخيرة التي تركها ممدوح عدوان في جهاز الحاسوب الخاصّ به في ملفّ خاصّ بعضها كان جاهزاً للنشر ، مكتملاً ، وبعضها الآخر أسماه " قصائد ناقصة " . والنصوص في معظمها قصائد مسكونة بالقلق ، ولكنّه القلق المختلف المرافق للخلق ،و إنه قلق الشاعر ، إنّه القلق الذي قد يمدّ الحبل للإنقاذ.

تحتوي المجموعة الشعرية الموسومة بـ " قفزة في الهواء " على ثلاثين قصيدة ، ويمكن للباحث أن يلحظ أحد عشر عنواناً من العنوانات الثلاثين تحمل دلالة الموت المباشرة أو المواربة : الانحناء ، شهقة ، عزلة، العودة ، وحدة . قرار بالموت ، وموت الورود ، وهاجس مع الموت ، وهواجس الموت ، وقلق الأموات ، وقفزة في العراء .

وعندما ترد لفظة الموت صراحة يقدّمها الشاعر متآلفة مع كلمة أخرى أو أكثر ليصبح العنوان مركباً ، فكأنّ هذه الكلمة الأخرى تعطيها شحنة دلالية جديدة تضخ فيها حياة قد تخفف من وقع الموت عليه . أي هو يتكىء على الحروف معتصماً بها كما في : "موت الورود " وقرار بالموت ، وهواجس الموت .. إلخ .

الذي لا شك فيه هو أنّ العنوانات تشكلّ عتبة رئيسة من العتبات النصّية . إنّها عامل رئيس من العوامل الموجّهة لأفق التوقّعات . واللافت في عنوانات هذه المجموعة الشعرية أنّ إشاراتها تكاد تكون واضحة ومباشرة، وبذلك تسهم أكثر في عمليّة التلقي ،ومقاربة المعنى النصي .

فإذا نظرنا إلى عنوان المجموعة الشعريّة " قفزة في الهواء " ،وهو عنوان كان الشاعر قد اختاره لكتاب أعدّه للنشر ،ولكنّ الموت لم يمنحه الوقت الكافي ، فإنّنا نستطيع أن نقول : إنّ زمن الشاعر زمن أسطوري يعيش الشاعر داخله على نحو شعريّ ، فتتراءى له فيه صور فنيّة جديدة ، وصيغ جديدة ، وعلاقات جديدة ، إنّه زمن أقرب إلى ذات الشاعر التي تتوزع عادة بين الواقع والحلم ، بين الممكن والمستحيل ،وبين الماضي والمستقبل ، ،بين الموت والحياة ، وبين الثبات والانطلاق ، وبين الأرض والسماء .ومن هنا يمكن أن نفهم عنوان المجموعة الشعرية " قفزة في الهواء " . وإذا أخذنا في الحسبان عنوان البحث تيمة " الموت " فإن ذلك يضعنا أمام شكل من تشابك الأزمنة بكلّ أشكالها مع هذا

(1) عدوان ممدوح ، قفزة في الهواء ، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ط1 دمشق 2014 ، ص 70

الموت الذي ينهي حركتها . ولكنّ الجدل ما زال قائماً بين العنوان والزمن والموت . ما العلاقة بين القفزة والهواء والزمن والموت ؟

إنّ لفظة القفزة لفظة غنية الدلالة ، غزيرة المعنى ، تفتح الأفق إلى أبعد الحدود ،فتدعو إلى التأمل والتّذكر والتّوقع : القفز من أين ؟ وإلى أين ؟ ومتى ؟ ، ولماذا ؟ وإذا كانت لفظة الهواء توضّح بعضاً من جوانب القفزة هذه ،فإنّها في الوقت عينه تزيد من بعدها ، فهل هذا الهواء فضاء أو سماء؟ فإذا كان سماء فإنّ فيها شيئاً من السمو والارتقاء ،وإذا كان الهواء هو الماضي أو المجهول ،فإنّ القفزة حينها تكون سقوطاً . وقد تكون القفزة انطلاقاً من كل قيد .

وليس هناك أيّة محدّدات للفاعل ،هل القفز إرادي هنا أم قسري ؟ إنّ قراءة عنوانات القصائد ، وكذلك عدد من النصوص يبيّن أنّ احتمال القرار بالقفز ذاتي ، فإذا كان الهواء والموت يلتقيان في موضع واحد هو المجهول ، وإذا كان الشاعر قد أسند في مرّات كثيرة فعل الموت للبشر : سأموت ، قرار الموت ، سأؤجل موتي ... إلخ فإنّ كلّ ذلك لا يوضّح الغامض ، بل يزيده غموضاً، فأيّ موت هذا ؟ هل هو قدر مكتوب لا مفر منه ، أم هو نهاية طبيعيّة أم هو رغبة وهدف يسعى إليه البشر ؟ أم هو تحوّل وانتقال ؟.

يبدو أنّ زمن كتابة النصوص ترك أثراً واضحاً فيها ، فلو أجرينا مقارنة إحصائيّة سريعة بين قصائد المجلد الأول [1]من الأعمال الشعرية لممدوح عدوان ،ويقع في سبعمئة وتسع وخمسين صفحة و ويضم مئة وإحدى عشرة قصيدة ،منها عشرون فقط حملت عنواناتها إحدى دلالات الموت ، في حين إنّ " قفزة في الهواء " [2] وهي مجموعة شعرية تقع في مئة وثمانين صفحة وتضمّ ثلاثين عنواناً ، منها أحد عشر عنواناً يحمل دلالة ما من دلالات الموت .

إنّ الفرق الزمنيّ بين كتابة نصوص العملين ليس صغيراً، ففي المجلد الأول ظهرت الأعمال الأولى ،أو لنقل مرحلة الشباب والقوة والاندفاع بكل أشكاله . أما في العمل الثاني فإنّ زمن الموت كان حاضراً ، وهذا الأمر جليّ ،وطبيعي جداً لأن المسافة بين حياة الشاعر الحقيقية ، وحياته الإبداعية ليست بعيدة سواء أربطنا الأمر بالوعي ،أم ربطناه باللاوعي . أمر آخر هو أن الشاعر لا يقف عند حدود ما يراه أو ما يسمعه أو ما يلمسه إذ إن " لديه ما يبرز في أحلامه وخيالاته الذاتية الداخلية الممزوجة مع الخيالات الخارجية واللتين تشكّلان معاً عالماً مفتوحاً على كافة الإمكانيات ، فالحدود بين الفلسفة والشعر تم تعديلها بحيث ألغيت "[3]

من هنا يمكن أن نلمح تقاطعات لافتة بين درب الشاعر ودرب الفيلسوف في المجموعة قيد الدراسة حيث قلب الشاعر دائماً موزّع ومدهوش ، ويصفه انتونيو تشادر بقوله : " قلبي نابض ومبهور وموزّع " [4] وهذا النبض ، وهذا الانبهار ، وهذا التوزع والتشتت واضح جليّ في النصوص التي بين أيدينا وهو ما سنحاول إضاءته بشكل أكثر تفصيلاً.

أهميّة البحث وأهدافه :

تنبع أهميّة البحث من كونه يدرس ظاهرة لافته في نتاج شاعر مميّز ، هي العلاقة بين صورة الموت والإبداع الشعري، أو لنقل العلاقة بين الزمن والموت ، ويرمي البحث إلى إظهار أنّ إحساس الشاعر بالموت إنّما يجعله يعيد النظر في علاقته بالآخرين وفي علاقته مع نفسه ،إذ يصبح أكثر استعداداً لتقبّل النهاية ، ولكنّ هذا الضعف الجسدي لا يؤثّر في قوّة الصور الشعرية وإن تبدلت طبيعتها ،وهنا تكمن أهمية البحث .

[1]عدوان ممدوح، الأعمال الشعرية، المجلد الأول، دار المدى طدمشق 2005
[2]عدوان ممدوح، قفزة في الهواء ، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ط1 دمشق 2014
[3]ثامبرانو ، ماريا ، الفلسفة والشعر ، ت محمد النجاري بين سيدي المختار وغيره دار الثقافة العربية ، القاهرة 2008 ص(34،35)
[4]المرجع نفسه ، ص(38).

منهجيّة البحث :

يحاول البحث الإفادة من أكثر من منهج نقديّ ، وإن كان يتّكىء أكثر على منهج التحليل النفسي للأدب ، نظراً لارتباط موضوعة الموت بالذات ، بشخصيّة المبدع ، ويفيد أيضاً من المنهج البنيوي التكويني في أثناء دراسة النصوص وتحليلها وإبراز ما فيها من قيم جمالية ، ويعتمد أيضاً على المنهج التاريخي .

مدخل :

يقف الإنسان منذ الطفولة مراقباً حركة الحياة التي يعيش وسطها بين حياة وموت ، بين خريف وربيع ، بين بداية ونهاية. فأوراق الخريف الصفراء التي تسقط ، وحبّات القمح التي تموت وتُدفن في باطن الأرض، لا تنهي دورة حياتها ، بل تعود مع قدوم فصل الخصب والتجدّد والانبعاث لتنمو من جديد ، إنّ كلّ هذا كان يدفع الإنسان إلى التفكير ويفتح أمام خياله مدى شاسعاً ليبدأ بالتساؤل الذي يعمّق شكّه دائماً، وقد يصل إلى اليقين أحياناً، ثمّ ينتهي به الأمر بعد ذلك بالتسليم بأنّه يعيش بين ضفتين : البداية والنهاية ، بين حركة وسكون ، وبينهما يمكن أن نلمح قلقه، ونتلمس هواجسه بالنهاية التي لابدّ آتية .

وهكذا يكون الإنسان بعامّة ، والشاعر بحساسيّته الأكثر رهافة أمام محور أساس ، وهاجس أكبر هو الحياة / الموت،تلك الثنائية التي تدفعه للخوض في القضايا الوجودية الكبرى ، وللبدء بمحاولة صياغة ما ينتجه وعيه وتفكيره وتأمّلاته الوجودية إبداعاً فكريّاً وفنيّاً، وبذلك اكتسبت الفنون والآداب والثقافات كلّها عمقاً وروعة .

لقد تباينت رؤية الشعراء لتيمة الموت ، وتفاوتت طريقة تعاملهم مع هذا المفهوم . فمنهم من قدّم الموت تقديماًعادياً لا يختلف عن تقديم أيّ مفهوم آخر، ومنهم من أوغل أكثر في الخوض فيه،مغدقاً عليه كمّاً كبيراً من العواطف ، ومنهم من لامسه من منطلق الإيمان والتسليم ومنهم أيضاً من صوّر الإحساس بالزمن بشكل تراجيدي . والشاعر فنان يمتلك الموهبة والحساسية واللغة بكلّ ما تختزنه من طاقات ومن خلال وعيه الشعري طرح هذه التيمة منذ القديم و وتعددت رؤيته للموت فهي تارة خارجية بعيدة ترتبط بالآخر وتارة أخرى داخلية عميقة نمت حتى وصلت إلى رثاء الذات.

جاء في مقدمة كتاب جاك شورن " الموت في الفكر الغربي " أنّ " ثمّة شيئين لا يمكن أن يحدق فيهما المرء الشمس والموت "[1]، ولأنّ الموت تيمة معقدة شائكة متشعّبة شكّلت موضوعاً متعدّد الوجوه خاض فيه علماء الفلسفة و الاجتماع واللاهوتيون وغيرهم ، وبمقدار ما وجد فيه هؤلاء قوة تدميرية ، وجدوا فيه قوة إبداعية ، صحيح أنّ الإنسان يخشى الموت لدرجة أنّه يتحوّل في أحيان كثيرة إلى هاجس وعامل قلق وتوتر وربّما انعكس هذا القلق وهذا التوتر في أفعال الإنسان وحياته وسلوكه، وقد يتحوّل إلى اضطرابات نفسية عصابية ، ولكنّ هذا الخوف من النهاية الحتمية قد يدفع الإنسان للاستمتاع بوجوده وحياته فيبدع في علم من العلوم ، أو فن من الفنون [2] إنّ من يقرأ الشعر العربي سيلاحظ أنّ هذه التيمة احتلّت مساحة واسعة ، فهي حيناً أساس لبيت شعري ، وحيناً آخر أساس مقطع شعري أو قصيدة، وحيناً ثالثاً أساس لمجموعة شعرية مستقلة كاملة . وفي الحالات كلها نلحظ تأثر شعرائنا بالموت كمفهوم أو كوعي محدد ، أو كمذهب فلسفي . فما هي دلالات الموت اللغوية ؟ وما هي رؤية الفلاسفة له ؟ وما هي تجلياته في المجموعة الشعرية المدروسة ؟.

---

[1] شورن،جاك: الموت في الفكر الغربي- ت. كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم د. إمام عبد الفتاح إمام. عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويتية العدد 76 أبريل 1984 ص7

[2] ينظر : عبد الخالق ، أحمد محمد، قلق الموت، عالم المعرفة العدد 111 الكويت 1987 ص7

الموت لغة :

جاء في لسان العرب في مادة م و ت " الموت خلق من خلق الله وغيره . الموت والموتان ضد الحياة ، والموات بالضم: الموت. مات يموت موتاً. ورجل ميت وميت ، ويقال الميت الذي مات ، والميت والمائت الذي لم يمت بعد ." [1]

وفي معجم مقاييس اللغة جاء : " الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء . منه الموت خلاف الحياة ، وإنما قلنا ذهاب القوة لما روي عن النبي (ص) " من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقرب مسجدنا، فإنْ كنتم لابد آكليها فأميتوها طبخاً " [2]

أما معجم تاج العروس فقد أضاف إلى ما سبق أن " من المجاز الموت السكوت ، يقال : مات سكن . فقد مات ، ومن المجاز أيضاً . مات الرجل ، وهمد وهوم إذا نام .. ومات الثوب بلي .. ومنها زوال القوة الحسية ، ومنها زوال القوة العقلية ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة .." [3]

أما الدلالة المعرفيّة للموت فقد تعدّدت وتباينت ، فمن الفلاسفة من ذهب إلى الدلالة اللغوية الدقيقة بمعنى نقيض الحياة، أو السكون أو النوم ، ومنهم من وجد في الحياة قطبين متصارعين واضحي التناقض : الموت والحياة ، ورأى تجسيداً لصراع هذين المتناقضين في الصراع الأزلي بين الخير والشر، حيث الخير هو الخصب والسعادة والشمس المشرقة والنماء ، وحيث الشر هو الموت والدمار والخوف والظلام والجفاف . والشيء اللافت حين نغوص في عمق الحضارات الإنسانية هو شبه متّفقة في النظرة إلى الإنسان على أنّه مزيج من روح وجسد من هنا فإنّ " كل الصور التي طرحها الفكر الأسطوري والديني كانت تنسب إلى الجسد وحده دلالات الموت والفناء والعذاب ، بينما احتفظت النفس وحدها بفكرة الأمل والخلود والخلاص وإمكانية الفرار من الموت الأرضي ". [4]

ويمكن أن نلحظ من خلال قراءتنا لملحمة جلجامش ضرباً من ضروب البحث عن حقيقة الموت أو حقيقة الحياة ، ولا فرق بينهما ، إذ إنّه حين رأى جثة صديقه أنكيدو وقد استحالت إلى طعام للديدان الصغيرة عرف أنّه ملاقٍ المصير ذاته ، إنه البحث في قضية ما بعد الموت ، ما الذي ينتظر على الطرف الآخر من الوجود . يقول ك " أي نوم هذا الذي غلبك وتمكن منك ؟ لقد طال ظلام الليل فلم تعد تسمعني، اذا ما مت أفلا يكون مصيري مثل مصير أنكيدو ؟" [5]

الموت نهاية طبيعية :

ليست المعرفة عملية عقلية فحسب ، بل هي تمرين للروح . وهو تمرين يؤثر في الحياة كلها . بالنسبة للمعرفة " الحب يحدد أسلوب الحياة، لأنّه طريقة للسير نحو الموت ... أن تنضج للموت هي عملية من خصائص الفيلسوف "[6]. وهكذا يكون الموت نهاية منطقية طبيعية على رأي الفيلسوف ، أما الشاعر الذي تتعدد ظهوراته فهو تارة تائه في النور ، أو متشرّد في الجمال ،وتارة مجنون وسط عقلاء ، أو عاقل وسط باقة من الجهل ، وحيناً رحيم وخاطىء أو باحث عن الرحمة . فنلحظ أنّ الشعر يبدو عنده كلمة لا عقلانية . هي كلمة في خدمة النشوة ، يتجاوز الشاعر وجوده، ويصبح شيئاً آخر أكثر من أن يكون إنساناً، وإذا كان الشاعر محباً للحقيقة ، فإنّ الحقيقة التي يحبها ليست الحقيقة الحصرية ، ولا الانتقائية ، إنّها الحقيقة المنفتحة على كل شيء ، من هنا نجده متشرداً يقدّم الشفقة والقلق والتأمل الخصب [7]بهذا

---

[1]ابن منظور، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت ، ح15، ص506
[2]ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، انتشارات دفتر بليغات، اسلامي طهران، تحقيق عبد السلام هارون1404هـ ، (موت).
[3]الزبيدي، تاج العروس، تحقيق مصطفى حجازي الكويت1969 ، (موت).
[4]مشوّح، د. وليد: الموت في الشعر العربي المعاصر،1920-1990 ،اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1999 ص 29،
[5]باقر، طه: ملحمة جلجامش" أوديسة العراق الخالدة، وزارة الثقافة، بغداد 1962 ص22.
[6]ثامبرانوماريا : مرجع سابق ص42
[7]ينظر المرجع السابق ص 43-44

يمكن أن يبدو الموت نهاية طبيعية حيث " يستطيع الإنسان أن يشهد موته الخاص في حياته ... ما دمت أدرك أنّ كلّ شيء يموت ...الثمار ، الأشجار ، الحيوان ، الطير ، بل والجبل ، وما دمت أرى رفاقي من حولي يتساقطون صرعى واحداً إثر آخر، فما بالي إذن لا أعرف أنّي ميّت ، فإذا تيقنت هذه المعرفة ، وثبت وقائعها في وجداني وخلدي ، فأنا إذن أعيشها في كل لحظة ، أو كأني أعيش موتي ". [1]

أما سينكا* Seneca فيرى أنّ الموت " شيء جليل وعلى المرء أن يتعلّمه لفترة طويلة لكي يتمكن من الرحيل عن هذا العالم رابط الجأش حينما تدقّ الساعة المحتومة ، ومن لا يملك إرادة الموت لا يملك إرادة الحياة ، فقد منحت لنا الحياة فحسب شريطة أن نلاقي الموت ، وهي تتحرك باتجاه الموت ومن هنا فمن الحماقة أن يرهبه المرء " [2]

وإذا كان سقراط قد أشار إلى الفلسفة بأنّها " معرفة الموت " والواقع أنّه من دون الموت لا يمكن للبشر أن يتفلسفوا [3] ، فهل من المعقول أن نقول ذلك عن الشعر أيضاً ؟ هل يشكّل الموت الهاجس الأساس الذي بمقدار ما يكبح يدفعه نحو الإبداع . ولو تأملنا نصوص ممدوح عدوان الشعرية لوجدناها في معظمها تتصل بشكل أو بآخر بهاجس الموت ، وحتى في القصائد التي لا تتحدث عن الموت ، أو في تلك التي تبدو وكأنّها مليئة بالحياة ، يمكن أن نجد ملمحاً ما من ملامح الموت ، فالموت الإنساني هو أن لا تكون هناك أهداف تخلد بعد الموت ويحس المرء أنّه جزء منها ، وأنّه مات من أجلها . أمّا المبدعون فيخلدون بما يتركون من آثار إبداعية .

في المجموعة الشعرية قيد الدراسة نصادف أشكالاً متعددة للموت ولهاجس الموت ففي قصيدة " قفزة في العراء " التي يرثي فيها توأم روحه د. حامد خليل يقول :

" فيمَ التباهي يا أخي حامد ؟
ما كان هذا الموتٌ معجزة
ولا فخراً تتيه به عليَّ
تمدُّ مزهوّاً أمامَ جموعنا جثمانَك الراقد
فالناسُ كلُّ الناسِ قد وُلدوا وعاشوا ما استطاعوا ،
ثمّ ماتوا
ما كنتُ آملُ أن يكونَ فخارُنا هذا السباتُ ." [4]

هذا هو الموت نصيب الجميع ، فكما ولد الناس جميعاً وعاشوا كذلك ماتوا ، أي إنّ الموت فعل لا تفاوت فيه ، وصوته وحده يبقى الواضح وسط ضجيج الحياة والغربة ، وهو الصوت الذي دفع المرثيّ أستاذ الفلسفة إلى البحث فيه لمعرفة كنهه وأشكاله .

" كان مَنفى القلب شمساً لا تغيبُ
لم يبقَ من هديٍ لنا وسطَ العجاج
سوى ضجيج الموت ،

---

[1] _عامر، مديحه: قيم فنيّة وجمالية في شعر صلاح عبد الصبور، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986، ص251

***سينيكاSENECA (4 ق.م – 65م) من أعظم فلاسفة الرومان استدعته أجريبا أمنيرون لتربية ابنها الذي كان في الحادية عشرة من العمر ولكنه فشل في تقويمه وانتهى الأمر بتوجيه تهمة المؤامرة إلى الفيلسوف فأذن له نيرون بالانتحار فقطع شريانه بنفسه وترك رسائل إلى إلى صديقه بلوكيبوس، وهي تعد من أفضل ما ترك**

[2] _ شورن، جاك: الموت في الفكر الغربي، ص 173.

[3]ينظر المصدر السابق، ص173، 174.

[4]عدوان، ممدوح: فقرة في الهواء ص59

كان يصمُّ قُلوبَنا منه النعيبُ
وبدأتَ تبحث عن معانيهِ فتكشفُ موتهَم فيهم ليعرى
ثمّ تنفضح الندوبُ
وأنا مضيتُ لكي أُضيف لموتهم صوتاً يصير غناءهم
فلعلهم سيرون مشرقَ شمسِهم ، إن جاءهم فجراً غروبُ ." [1]

وللفيلسوف أن يبحث عن حقيقة الموت أما صوت الشاعر فيتحول غناء، ويفتح عيون الموتى الأحياء لعلّ النهار يُطلّ ذات مساء ، وهو بذلك يتقاطع مع المرثي فيتقاسمان مهمّة كشف جوهر الموت، وتحديد معانيه ليرى أنّ الأحياء أكثر موتاً من الموتى ، وهكذا يأخذ الموت بعداً مختلفاً عن مفارقة الروح الجسد قد يتجسّد بالعجز عن المواجهة ، أو بغياب الحلم والأمل والقدرة ، فقد كانا معاً " فرسي رهان متنافسين، ولكنّ زميله سبقه إلى نهاية الشوط إلى الموت يقول : "

" وسبقتَنِي في الجريِ ،
بنقع جوادك المضنى نزيفُ ،
وقفزتَ مندفعاً لتلقَفَكَ الجروفُ ،
المهر يهوي ، أنت تسقط عن صخورِ العمرِ
من أعشاشِ طيرِ الحلمِ .. تنطلق الرفوفُ " [2]

لنا كقراء أن نتخيل السباق ، وخطّ النهاية هذا الذي ينتهي إلى المجهول ، حيث تنطلق طيور الأحلام ، وأيّة طيور هذه التي تغادر أعشاشها لحظة الموت ، هل الموت حلم ؟ هل هو بداية لحياة مرسومة أحلاماً ؟. ولكنّه في نهاية القصيدة يحدّد موعداً للقاء حيث يحسم أنّ الموت ما منه اتقاء، لذلك يلوّح له مودّعاً إلى اللقاء ، وكأنّه مقتنع اقتناعاً تاماً بأنّ الموت نهاية حتمية لكلّ حيّ ، ومع ذلك نجده في بعض الأحيان يطلب تأجيل هذا القدر قليلاً حتّى يُتمَّ قصيدته أو مرثيته كما يشير هو ، والرثاء حقٌّ من حقوق القتلى :

"لا تقتلوني قبل إكمال القصيدة .
إنّها مرثيتي ... ويحقّ للقتلى الرثاء " [3]

ولأنّه ينتظر الموت لا داعي للمداراة واستغفار الجلاّد ، لذلك يختار من الكلمات أكثرها إثارة وقوّة ، وهي التي ستسهم في قتله ، لأنّها الأكثر إحكاماً، فحاله كحال سنمّار الذي قتله قصره الفريد ، ولماذا الخوف من الموت وهو أسهل ممّا يراه الأحياء كلّ يومٍ:

" القتل أهون ما يرى المقتول ، لكنّ المصائب عند من يبقى "
.. يا أيّها العرب النشامى أنجدوا وطني ،
وهاتوا لي قبوراً ، أو خذوا جثثاً "[4]

صورة الموت الحقيقي الذي نراه يومياً يزور بيوتنا ويأخذ الأطفال والرجال والنساء ، وفي النهاية يستجدي الموتى لأنّهم أكثر رحمة من البشر الأحياء قائلاً :

" يا أيّها القتلى خذوني من جنون الأهل

[1] عدوان، ممدوح: فقرة في الهواء ص61
[2] المصدر نفسه ص67
[3] عدوان، ممدوح : قفزة في الهواء ص73
[4] المصدر نفسه ص76-78

فالطغيان متّجه إلي بجنده

يا أيّها القتلى اسبقوهم ، واقتلوني " [1]

أمّا في قصيدة " قرار بالموت " فيرى الموت أقلّ صخباً ، هكذا بكلّ هدوء وسكينة ، كما يحبو الطفل الصغير ولن تكون هناك أيّة طقوسٍ أو ندبٍ، فكأنّه يسرق موته سرقة ، أو كأنّ الموت يتسلّل مثل ثعلبٍ ماهر ليخطف الصيصان الصغيرة ، لن يؤثّر موته في أحدٍ ولن يتذكّره أحد ولن يبكيه أحد ، فكأنّه ما وُجد ذات يوم على الرغم من كلّ ما عاشه ، فقد كان موجوداً في كلّ الأماكن: ذكيّاً وغبيّاً ، حاضراً وغائباً ، مع الطفل ومع العجوز ومع ذلك يقول :

" موتي مخفيٌّ

يحمل أسلحة كي لا يحتاج أحد ..

.. لن أنغرّ بغصنٍ أخضرَ إن دخّن فوق لهبْ

بعد قليل سيجفُّ ويبيس ، ثم يصير حطبْ " [2]

لنا أن نتفاعل مع صورة كهذه ، صورة محمّلة بكثيرٍ من الدلالات ، حيث من المعروف أنّ الأغصان الخضراء الحيّة المليئة ماءً وحياة لا تحترق بسرعة وكأنّها ترفض التفاعل مع النار لذلك يتصاعد منها الدخان بشكل كثيف، ولكن لا يلبث الغصن الأخضر أن يجفّ ويفقد ماءه، ليتحوّل إلى حطب سريع الاشتعال ، من هنا لا معنى للتعلّق بحبال الوهم، فكلّنا في النهاية، وإن كنّا أغصاناً حيّة، لا نلبث أن نتحوّل إلى حطب ، إنّه الشعور بأنّ النهاية الطبيعيّة لكل حياة إنّما هي الموت، بغضّ النظر عن رفضنا أو تقبلنا لها. وتتجلّى هذه الرؤية بشكل أكثر وضوحاً في قصيدة " العودة" التي تبدأ بمجموعة من الصور الشعرية الموحية باقتراب الموت: فالليل الكالح، والبرد الذي ينسلّ إلى نقيّ العظام ، والشعور بالعجز، والأبواب التي تُقفل، والآمال التي تستعد للرحيل، كلّ هذا يهيئ المشهد لقدوم الموت، وما الذي يمكن أن يشدّ الأذر في لحظة كهذه؟ فحتّى الأماني عليه أن يعترف بأن لا خير فيها، لقد استحالت (زؤاناً) ، ولقد انتهى وقت النزال بينه وبين الموت، ليرفع الراية البيضاء مُقرّاً بالهزيمة بعد أن ظلّ دهراً يكابر حتّى لم يبقَ له حول ولا قوّة، فكلّ ما بقي له أن يذرف دمعه على ماضٍ عاشه، وهو يبكي بخجل، يحاول أن يتوارى حتّى لا ترى الهزيمة دموعه ، ويبلغ الأسى ذروته عندما يعلن أنّه غير قادرٍ حتّى على البوح.

" لديّ الآن دمع ،ثمّ لا شيء سوى الدمع

دعينا ننزوي في البيت،

سأبكي مُرغماً

لا تجعليني أذرف الدمع أمام الغرباء–

لا أريد الليل أن يبصرني

[.....] ربّما ظلّ لدى الأولاد صبرُ أن يستمعوا

فتحكيهم أحاديث وأكمل.... تكملين القول إذ يخنقني قهري.

فلا ينتبه السمّار، أو ينقطع السرد المريح"[3]

---

[1] المصدر نفسه ص115

[2] المصدر نفسه ص21

[3] عدوان ممدوح: قفزة في الهواء ص 43-44

هكذا تبدو قسمات الموت: الظلام ، البرودة، البكاء، الدموع، العزلة وأخيراً العجز والصمت، ماذا يتبقّى له؟ لقد صار الموت صاحباً ولا بأس أن يخاطبه كصديق طالباً منه التمهّل قليلاً حتّى يستمتع بالحياة فيكمل مشواره ريثما يكبر ابنه، وبعدها يمكن أن يأتي وقت يشاء

((مهلاً علي، يا صاحبي ، يا أيّها النهر المملّحُ
فلأنت أوفى صاحبٍ،
ولأنت لا تنسى المواعيد التي بيني وبينك
سوف تأتي كي تذكّر عقرب الساعات بالدقّات.
كي تأمر القلب المُعنّى بكلامك العذب المجنّح ، أن توقّف))[1]

أيُّ ضعفٍ هذا الذي يمكن أن يصل إليه ، إنّه أفقر من عصفور فقد عشّه، أفقر من ساقيةٍ ضاعت في الرمل ، وماذا يبقى من الساقية إذا غار ماؤها، وأيّ عصفور ذلك الذي لم يبق له عشٌ يأوي إليه. ليس أكثر من فأرة صغيرة وسط المتاهة مُحاصرة من كل الاتجاهات، هو الموت وهو الإنسان.

الموت تحوّل:

كثيراً ما ننظر إلى الحياة نظره إيجابيّة ، نتفاءل ونبتسم لها، في حين إنّنا نتصوّر الموت تصوّراً سلبيّاً، والمنطق يقتضي أن يكون أحدهما نقيضاً للآخر، ولكنّ هذا التصوّر مازال يعتمد على تصوّرنا الموضوعي للزمن، أي بوصفه مسافات لها بداية ونهاية، ولكنّنا أمام الشعر يفترض بنا أن نرجع إلى التصوّر الشعري أو النفسي للزمن من حيث هو ديمومة وتدفق ، عندها يمكن أن نعيَ أنّ الموت والحياة في كلّ لحظة، وأنّ كلاً منهما يتداخل مع الآخر ، فلا وجود لأحدهما بعيداً عن الآخر" ، وفي وجودنا يجتمع الموت والحياة معاً كما يجتمع الأمل والألم، فبغير الموت لا تكون الحياة، وبغير الألم لا يكون الأمل" [2]

الذي لا شك فيه هو أنّ الإنسان البدائي كان يخشى الموت ولكنّه ما كان يخشاه بوصفه فناءً شاملاً، والذي يؤكّد ذلك هو ما نعثر عليه فيما تركته لنا الحضارات الإنسانيّة القديمة من آثار، كما هي حال الحضارة الفرعونيّة في مصر، أو حضارات الرافدين، أو حتّى بعض تصورات سكان المناطق القطبية من الأسكيمو.[3]

واللافت أنّنا يمكن أن نقرأ في التراث الفكريّ والفلسفيّ إشاراتٍ واضحة إلى أنّ الموت إنّما هو شكل من أشكال التحوّل " فالجوهر عند هيرقليطس هو النار، كلّ الأشياء تتبادل مع النار، والنار تتبادل مع الأشياء كالتبادل بين الذهب والسلع، أو السلع والذهب ، ولأنّ كلّ شيء يتدفّق ويتغيّر، فإنّ الموت ذاته ليس دائماً، ذلك أنّ روح الإنسان هي جزء من النار الخالدة التي تتحوّل ولكنّها تبقى للأبد... هذا يعني أن الفانين خالدون، والخالدين فانون، فأحدهما يعيش بموت الآخر ويموت بحياة الآخر[4]

في رثاء ممدوح عدوان لأمّه صورة شعريّة رائعة تقارب هذا الوعي الفلسفيّ الذي نجده لدى عدد من فلاسفة اليونان، ففي قصيدة بعنوان " موت الورود" تطلّ علينا الأمّ المنهكة التي تعبت من يقظتها الدائمة لرعاية أبنائها يقول:

((تعبتْ منّا، ومن يقظتها دوماً علينا
فارتأت أن تستريحْ

---

[1] المصدر نفسه ص 164
[2] اسماعيل، د. عز الدين: روح العصر، دار الرائد العربي بيروت 1972 ص192-193
[3] ينظر شورن، جاك: الموت في الفكر الغربي ص43
[4] المرجع السابق ص40

تعبت من جسد تجهدها فيه الشرايين التي صارت حطب
خرجت من جسد أرهقها ، أو أرهقته
غادرته كمسيح،
تركته في فراشٍ ساخن،
تركته في فراشٍ حنّ في يومٍ عليها وانتحب))[1]

في النصّ السابق إشارتان اثنتان: الأولى هي تلك القسمة الواضحة بين مكونين أساسين باتحادهما يوجد الإنسان وهما: الروح والجسد،\ إنّها الروح الخفيّة أساس الحياة التي دخلت هذا الجسد فأثقل عليها وبقيت تحن للتخلص منه، وهو في هذا إنّما يقارب الطرح الفلسفي الذي قدمه فيثاغورث "* حين كان يعلّم تلاميذه تناسخ الروح وتطهّرها في عجلة الميلاد ثم عودتها للاتحاد النهائي بالله. فالروح التي تُسجن في الجسم تغادره عند الموت ،وبعد فترة من التطهّر تدخل الجسم مرّة أخرى، وهذه العمليّة تتكرر عدة مرات حتى تتصفى[2]، والروح هي الأساس ،وهي الفاعل الذي يسيطر على الجسم لذلك نراها تترك الجسد في الفراش وتسمو ،ترتقي وفي كلّ سموٍ وارتقاء ارتفاع نحو الأعلى، مع ما يتضمّنه هذا الأعلى من إيحاءٍ يشيء بالاقتراب أكثر من المكان الذي هبطت منه ذات يوم، لذا كان من الطبيعي أن تحسّ بالراحة واللذة:

"وارتقت في سقفنا ترمقهُ، كي تعتقه منها
استراحت ، فتراخت
مثلما لو أنّها نشوى وواتاها الطرب"[3]

والنصّ يشير صراحة إلى أنْ لا صلة للمشاعر والأحاسيس بالجسم ، بل بالروح المُمتلئة حبّاً وحناناً ، فها هي ترقب الجمع وقد بدأ غسل الجسد الميّت وتكفينه . لقد مات الجسد أمّا هي فما زالت كما كانت حيّة نابضة، قادرةً؛ إنّها تشعر بالسعادة لأنّها ربّما ترى وجهها في صعودها الراسخ نحو الأعلى:

" وهي كانت تعبَة ،
وحدها تهمس لا تندبوني
إنّها تنهيدة الصفو لعلّي سأرى وجه ربي في الكرى
وهي في ضوء المكان " [4]

وكيف لا يكون سموّاً وارتقاء وقد استحالت نوراً يتداخل مع نور المكان ، ولكنّها مع ذلك ما زالت تمتلك القدرة على الفعل فهي تراقب الجميع بمشاعرهم وأحاسيسهم وحركتهم ، ثمّ تلتفت إلى البيت لتعيد تنظيمه بما يليق باستقبال المعزين، تؤدي واجبها الذي عايشته طيلة حياتها :

" أنهت الشُغل وحلّت بين ورد البيت
في الأُصّ الذي

---

[1] عدوان، ممدوح: قفزة في الهواء ص27-28
[2] ينظر: شورن، جاك: الموت في الفكر الغربي ص37
***فيثاغورث (572- 497 ق . م) فيلسوف يوناني معروف ، على يديه أصبحت الفلسفة طريقة حياة تؤكد الخلاص ، وكان يقول بمبدأ تناسخ الأرواح**
[3] عدوان، ممدوح: قفزة في الهواء ص28
[4] المصدر نفسه، ص29

لم تنسَ أن تسقيهُ كلّ صباح
حين عادوا وجدوها وردة مفتوحة العينين في الأصّ الوحيد " [1]
هكذا تظهر التحولات التي طرأت على الروح، حيث تفكّك الكيان البشري إلى جسد وروح حلّ الموت بالجسد الذي غُسل وكفّن وخُرج به محمولاً إلى حيث دفن ، في حين تحوّلت الرّوح إلى الحالة الأثيريّة التي اتحدّت بالضوء وأحاطت بالمكان حتّى أتمّت ما نوت عليه ، ثم استقرّت وردة في الأصّ الصغير ، هكذا إذن :
" جسدٌ ووري في اللحد ، وظلّت دفئنا في البرد
صارتْ نسمةً .. في ليالي الصيف
ظلّت في سماها عالية " [2]
وهكذا يكون حال الأم قريباً جداً من تصور الفيلسوف سينيكا حين قال : " في الفترة الزمنية الممتدّة من الطفولة إلى الشيخوخة يتمّ إنضاجنا لميلاد آخر ، إنّ بداية أخرى تنتظرنا كما ينتظرنا وضع آخر ... ولكن حين يجيء أوان الميلاد الجديد فإنّنا ينبغي أن نتطّلع إليه بلا تردّد، لأن تلك الساعة الحاسمة التي هي نهاية الجسد ليست نهاية النفس "[3]
لقد عاش ممدوح عدوان حياته وهو يحتفي بالحياة لا بالموت ، وحتى في مجموعة مجموعته الشعرية الأخيرة هذه بقي متمسكاً بالحياة على الرغم من أنه كان يدرك اقتراب الموت منه أكثر فأكثر . من هنا يمكن أن نفهم هذا الوعي الذي يستحضر فيه أمه أنه وهو يتحدث عن أحد أبرز حدثين مرا في حياته وأثرا فيه كثيراً وهما "الخامس من حزيران وموت أمي" "[4]
كان يرى في الموت تحولاً وارتقاءً ، وليس نهاية ، ولأنّه كذلك نجد ميله إلى استخدام ضمير الغائب أكثر من غيره : كانت ، تعبت ، ارتأت ، خرجت ، غادرت ، تراخت ، ظلت ، تخلصت و أمسكت ، وقفت ، وهذا الاستخدام إنّما يبرز الإيقاع السردي الهادئ الذي يعدّ شكلاً من أشكال المكافأة على ما قدّمته الأمّ طوال حياتها التي كرستها لبيتها وأسرتها، للتضحية التي قدّمتها عبر سنوات حياتها .
ولكي يؤكّد إحساسه هذا يُسند الفعل إليها ، ويكرّر ذلك أكثر من مرّة :
" فارتأت أن تستريح
خرجت من جسد أرهقها
غادرته كمسيح "
فالضمير الغائب ((هي)) الذي يعود إلى الأم يشير صراحة إلى أنّ الموت هو خيارها هي ، وهي تدرك كنهه ولذلك تختار الأصّ الذي كانت تسقيه كلّ صباح .

الخاتمة :

تناول البحث تيمة الموت في مجموعة "قفزة في الهواء " للشاعر ممدوح عدوان، ومن خلال الوقوف على الموت كموضوعة حاضرة في معظم النتاجات الشعريّة والفلسفيّة الإنسانيّة تبيّن لنا أنّ ظهور هاجس الموت يبدو لافتاً في لحظات الضعف ، على الرغم من إمكانيّة حضوره في زمن القوّة.

[1] عدوان ممدوح: قفزة في الهواء ص33
[2] المصدر نفسه ص33
[3] شون، جاك : الموت في الفكر الغربي ص77
[4] جريدة البيان الإماراتية 10مارس 2001 لقاء مع راشد عيسى مع الشاعر ممدوح عدوان

وإذا كان ممدوح عدوان قد استدعى الموت، ورحّب به،وواجهه في شبابه، فإنّه في مجموعته الشعرية الأخيرة التي درسناها يبدو مُستسلماً أكثر مما هو مقاوم أو رافض، ولكنّه في قصائد كثيرة وجدناه يستعين بالحلم أو باللغة في مواجهة الموت ، حتّى إذا ما يئس سلّم له، وأصبح جلّ اهتمامه أن يعطيه مزيداً من الوقت.

اللافت هنا كيف أنّ حبّه لأمّه دفعه إلى تبني فكرة ،الموت تحوّل، وليس نهاية، وفي النهاية تبقى روحها حاضرة في أصّ الورد على الرغم من مفارقة روحها للجسد الذي دفنه بيديه.

ويلحظ الباحث أنّ هذه الرؤية تبدلّت واختلفت عندما رثى الشاعر صديقه د. حامد خليل حيث صوّر الموت نهاية لسباق طويل نشارك فيه جميعاً، والخاسر هو الذي يبقى حيّا، لقد سبقه صاحبه إلى نهاية الشوط. كأنّي به يرى موته في موت الآخرين، ومن هنا يقنع نفسه أنْ لا قدرة له للوقوف في وجه الموت.

المصادر والمراجع

1-ابن فارس ، أحمد : *مقاييس اللغة* ، انتشارات دفتر بليغات ، اسلامي طهران، تحقيق عبد السلام هارون ، 1404 هـ.

2-ابن منظور ، محمد بن مكرم : *لسان العرب* ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د .ت

3-إسماعيل ، عز الدين : *روح العصر* ، دار الرائد العربي ، بيروت 1972

4-باقر ، طه : ملحمة جلجامش أوديسة العراق الخالدة ، وزارة الثقافة ، بغداد 1962 ،303.

5-ثامبرانو ، ماريا : *الفلسفة والشعر* ، تر. محمد النجاري بن سيدي المختار ، دار الثقافة العربية ، القاهرة 2008 ، 155 .

6-الزبيدي ،محمد بن محمد الحسني : *تاج العروس*، تحقيق مصطفى حجازي، الكويت 1969

7-شورن ، جاك : *الموت في الفكر الغربي* ، تر. كامل يوسف حسين ، مجلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، العدد 76 ، 1984 ،345 .

8-عامر ، مديحة : *قيم فنية وجمالية في شعر صلاح عبد الصبور*، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1986، 307.

9-عبد الخالق ، أحمد محمد *: قلق الموت* ، مجلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، العدد 111 ، 1987 ،217 .

10 - عدوان ، ممدوح : *الأعمال الشعرية الكاملة* ، المجلد الأول . الطبعة الأولى، دار المدى، دمشق 2005، 759.

11 - عدوان ، ممدوح : *قفزة في الهواء* ، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ط1 ، دمشق 2014، 180.

12-عيسى، راشد : *لقاء مع الشاعر ممدوح عدوان*، جريدة البيان الإماراتية، 10 مارس 2001

13- مشوح ، وليد : *الموت في الشعر العربي المعاصر (1950-1990)* ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1999 ،570 .